اللغة العربية في مرآة قواعدها القومية

الأستاذ أنطون شال (1)
جامعة هايدلبرج
ترجمة الأستاذ إدريس الخطابي

اذا فتحنا كتابا من الكتب الحديثة التي تعالج قواعد اللغة اللاتينية لنستعلم عن انواع الكلمات المكونة للجملة وجدنا التقسيم كما يلي: الاسم والفعل والجزيء (او الأداة) (Partikel) . والعلامات التي يستند اليها هذا التقسيم ذات طبيعة عريضة اي انها ليست من صميم الكلمة : فالأسماء المعربة والافعال المنصرفة كلمات قابلة للتغير . واما باقي الكلمات غير المتغيرة فيشملها اللفظ العام : جزيء . غير أن علامات التمييز هذه لا تفي بالغرض اذا اردنا أن نقسم الجزيء الى اقسامه المختلفة . ومن ثمة ادخلت فكرة وظيفة الكلمة في الجملة وتفرع الجزيء الى حال وجار وعطف ونداء . فنحن نرى اذن ، ان قائمة انواع الكلمات او اقسام الكلام ، قد اشتملت على الفاظ ذات طبيعة متباينة تباين وجهات النظر النحوية عبر التاريخ.

واذا رجعنا الى ما قبل اليوم بحوالي قرنين اي الى زمن وضع القواعد النحوية الاولى في البلاد الغربية ، والقينا نظرة على « فن القواعد اليونانية » لمؤلفه ديونيزيوس تراكس (Dionysios Thrax) الفينا فقرته الحادية عشرة تقول من بين اشياء اخرى: « ينقسم الكلام الى ثمانية اقسام : اسم وفعل واسم مفعول واداة تعريف او تنكير وضمير وحرف جر وحال وعطف » . اما النحويون الرومان فاننا نجدهم يتخذون المصطلحات اليونانية مترجمة بالحرف الواحد . ولذلك ظل نموذج ديونيزيوس تراكس عالقا بالأذهان لدرجة ان الاقسام الثمانية ظلت قائمة على الدوام مع تغيير بسيط وهو احلال حرف التعجب محل اداة التعريف التي لم توجد في اللاتينية . وقد تولى النحاة الثقات، مثل دونات (Donat) وبريشيان (Priscian) نشر هذا المذهب طوال القرون الوسطى والزموا به الناس . اما التقسيم الثلاثي الذي أوردنا في مطلع بحثنا فلا يوجد له اثر واحد في هذا الوقت على ما اظن .

وقد أسس يوهانس رويشلين (Johannes Reuchlin) سنة (1506) في بفورتسهايم (Pforzheim) قواعد اللغة العبرية عند المسيحيين في كتابه « مبادىء العبرية » . وفي الصفحة (551) يكتب عند تعرضه لأقسام الكلام

(1) جاءنا هذا البحث من مؤلفه من المانيا الاتحادية ورغم بعض الآراء الغريبة التي جاءت فيه فاننا ننشره حتى تكون على علم بكل ما يكتب عنا مهما كانت نوعيته او قيمته وقد نشرنا الاصل في مكان آخر من هذا العدد » . وهو عبارة عن كلمة القيت بمناسبة تولي المؤلف الاستاذية فوق العادة للغات السامية الحديثة والاسلاميات في جامعة هايدلبيرج في 21 ديسمبر 1971 .

العبري : هنالك ثلاثة اقسام : الاسم والفعل والآتي بمعنى ـ نقول اليوم الجزيء ـ ، ويشتمل الاسم ايضا على الضمير واسم المفعول . ويشتمل الحرف على الاربعة الآتية : الحال والعطف وحرف الجر والتعجب. نرى أن تقسيم كتابنا الحديث للقواعد اللاتينية يتفق مع كتاب رويشلين اتفاقا مدهشا . والجدير بالذكر أن رويشلين والعلماء المسيحيين المعارضين له أخذوا فكرتهم حول أقسام الكلام عن الاعمال النحوية اليهودية القومية حول اللغة العبرية ، غير أن أعمال علماء اليهود النسقية الاولى كتبت باللغة العربية والفت تحت تأثير وحسب نموذج القواعد النحوية العربية القومية .

قادتنا هذه الفارة الصغيرة في تاريخ النحو الى علم هيمن في عهد لمعان الثقافة العربية الاسلامية . وتأثير هذه الثقافة وبقائها في علوم الغرب الطبيعية والرياضيات وعلم النجوم ودورها الوساطي بالنسبة للتراث اليوناني معروف معرفة عامة . غير أن الأثر المتواضع لهذا العلم العربي الاصيل في وسط كتاب من كتب النحو الحديثة لم ينظر اليه بعد ، من هذه الزاوية .

ولم أجد في نطاق عملي ، شعبا من الشعوب القديمة ، عني بلغته وفكر فيها وحاول تنسيق تأملاته حولها الا الشعبين اليوناني والهندي . اما الدور الذي قام به النحو القومي اليوناني فقد سبق أن أشرنا اليه واما الهنود فقد تجاوزوا دقة اليونان في هذا المضمار واظهروا أصالة في أبحاثهم ووصلوا الى القمة بمؤلفات بانيني (Panini) أواسط القرن الاول قبل المسيح . وقد مهدوا بالفعل الطريق امام الباحثين الهندوجيرمانيين في الدراسات المقارنة بين اللغات. ولم تتم الانجازات العظيمة الرائعة في هذا العلم الا بعد دراسة السانسكريتية والبحوث الدقيقة التي قام بها النحويون الهنود الذين القوا الضوء على هذه اللغة واوضحوا غوامضها الدقيقة .

ويقع النحو القومي العربي ، في المكان والزمان، موقع الوسط بين النحوين الهندي واليوناني وهذا الموقع هو الذي جعل الناس يتساءلون الى الآن ، عما اذا كان النحويون العرب قد استعانوا بنماذج اجنبية ونظرا لهذا الوضع ولعدم تمكن العلماء من اعادة المراجع الى أصولها بالدقة المطلوبة أصبح من المستحيل الفصل في هذا الامر ، اذ ليس من المتوقع أن نجد قبل الخليل ، الذي يعتبر المؤسس للنحو العربي ، مصادر أقدم منه للرد على هذا السؤال . وفي القرن الثاني الهجري اي في نهاية القرن الثامن الميلادي ، طلع على الناس بنيان عجيب ، هو بمثابة صرح لقواعد اللغة العربية . والذي شاد هذا البناء الشامخ هو تلميذ الخليل الفارسي سيبويه . وأهم اعماله النحوية هو مؤلفه المسمى « الكتاب » . وفيه أول عرض شامل منسق للغة العربية وهو بالنسبة للنحويين العرب « الكتاب » الذي لا يزال ثقة الى يومنا هذا .

اما نقطة الانطلاق بالنسبة لأكثر العلوم العربية تفاوة فتدور حولها مجموعة من الأساطير. فقد كان ابو الأسود الدؤلي ـ أحد أنصار علي بن ابي طالب آخر الخلفاء ـ قاضيا في البصرة وهي المدينة الكبيرة التي كانت في اول امرها معسكرا للجنود العربية ، والموجودة اليوم في جنوب العراق . وقد سئل ابو الأسود الدؤلي: كيف تعلم العلوم النحوية فاجاب بأن الخليفة نفسه هو الذي علمه اياها ولم يكن ابو الأسود يعير معلوماته اهتماما كبيرا حتى أمره حاكم العراق بوضع دليل للغة العربية ليتمكن الجمهور من تفهم القرآن كتاب المسلمين المقدس . ولم يبد ابو الأسود رغبة في الانصياع لهذا الامر بيد انه سمع يوما احد الناس يتلو جزءا من السورة التاسعة من القرآن (سورة التوبة : المترجم) كما يلي : « أن الله بريء من المشركين ورسوله (1) » بدلا من ورسوله كما هي القراءة الصحيحة . والقراءة الخطأ ليست اقل من الكفر لأن معناها أن الله بريء من المشركين ومن رسوله . فذهل ابو الأسود من هذه القراءة وقرر على الفور تلبية امر الحاكم .

ليس من الصعب معرفة النواة التاريخية لهذه الاسطورة ، فالمسألة تدور حول المحافظة على تراث مقدس اي حول وقاية ما يعتقده العرب انه كلام منزل من عند الله بلغة عربية خالصة نقية . فكانت اذن الاسباب التي اثارت عند العرب الانتباه الى القواعد النحوية هي اسبابا دينية . كان من الواجب أن يصان القرآن عن الأخطاء في افواه العديد من الذين كان عهدهم بالاسلام حديثا . والاتصال باللغات الاجنبية في البلاد المغزوة هو الذي نبه العرب الى الاعتناء بلغتهم وليس هذا السبب اقل الدوافع لوضع النحو القومي ، مع العلم بأن الاتصال باللغات الاجنبية في البلاد الغربية

(1) بالعربي في الاصل .

في نفس الزمن ـ اي في القرون الوسطى ـ لم يؤد الى الاشتغال باللغة القومية . فاللغة العربية عرفت درجات مختلفة من النمو وكانت هذه اللغات المختلفة المستويات تتنازع الصدارة قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم ـ المترجم) . فمن ناحية توجد لغة دارجة منقسمة الى لهجات متباينة ، ومن ناحية اخرى اللغة العربية العتيقة الآتية من القدم ، لغة راقية او لغة الادب . ولا نستطيع اليوم تحديد الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما هذه اللغة الراقية ولا متى اعترف لها بالصدارة ولا متى اعتبر استعمالها ملزما بشروط معينة ، والشيء الذي لا يتطرق اليه الشك هو أن هذه اللغة كانت في زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) متميزة عن اللهجات الاخرى واصبحت لغة تعم جميع القبائل فيما يخص الشعر والاحتفالات ذات الأبهة والاحترام . وقد احتفظ الشعر العربي القديم ـ بأوزانه الصارمة البنية ـ لهذه اللغة بثقافتها . واهمية الشعر ـ كبديل للفن التشكيلي ـ الذي كان مستحيلا في الحياة البدوية ـ جعلت من الممكن ابقاء هذه اللغة حية على الدوام .

والتناقض بين لغة العامة ، ولغة الشعراء والقرآن كان لا بد أن يعمق التفكير في اللغة القومية . ومن المؤكد أن الذين اتخذوا تلاوة القرآن مهنة كانوا في نفس الوقت نحاة . فلم يكن تأويل القرآن الذي كان ينظم الحياة العامة والخاصة ممكنا الا بمعرفة دقيقة للغة الراقية . وفي المدينتين الطموحتين الكوفة والبصرة ـ بأدنى العراق ـ نشأت مراكز للعلوم النحوية ، ربما اقتصر هذا العلم بادىء ذي بدء على مراقبة كلام البدو وجمع وشرح الاشعار والروايات الخاصة بالحروب القديمة والامثال والتقاليد ، فنعرف ـ مثلا ـ ان معظم اعمال الكوفيين مجرد تجميع . أما البصريون فيظهر انهم بكروا بترتيب المواد المتواترة والممثلان الرئيسيان لمدرسة البصرة الخليل وسيبويه، هما اللذان أتما تنسيق النحو العربي .

نعرض على القارىء فيما يلي تأملا قصيرا عن النظرة الاسلامية للعلوم :

عرف السيوطي العالم العربي المشارك كل العلوم بانها جزء من المنقول المأثور الذي عولج بعقل وتدبر . ويشتمل هذا التعريف على ركني كل عمل علمي : احد هذين الركنين هو المنقول اي المادة المأثورة القابلة للمعالجة والتنقيح ، والركن الثاني هو عقل العالم المنقح مع موهبته البنائية والتركيبية . ويمكن أن يكون هذا التعريف نفس تعريفنا نحن الغربيين ، مع العلم ان العلوم الاسلامية ومعها النحو العربي القومي قد اتجهت وجهة متباينة تمام التباين عن وجهة العلوم الغربية . فنحن نحاول توسيع المادة المأثورة وتنميتها حسب الامكان ، ففي مادة التاريخ ـ مثلا ـ نجتهد دائما في ضم مصادر أخرى حتى نستطيع تحديد اسباب مصيرنا بطريقة ادق . **وفي العلوم اللغوية نسعى الى مضاعفة تعميق نظرتنا حول تطور اللغة وذلك بواسطة طبع أمهات الكتب والبحث في اللغة الدارجة** . نعم نقيم ـ نحن ايضا ـ نظرياتنا على أساس المواد الموجودة بين ايدينا ، واذا تغيرت هذه المواد او وجدت مواد جديدة يمكن أن تتغير النظريات تحت ظروف معينة تغيرا حاسما . غير أن العلوم الاسلامية نمط آخر : فالمادة المتواترة قد اكتملت ووصلت الى حدودها في زمان معين في الماضي . فبعد أن أقام اللغويون العرب نظريتهم النحوية على أساس الادب العربي المعترف به آنذاك أصبحت هذه المادة المحدودة ، المقياس الوحيد لبناء النسق النحوي .

ولأجل هذا النموذج الذي وضعه النحويون الأوائل لم يؤخذ بعين الاعتبار مع القرآن الكريم الا الشعراء الاقدمون والنصوص النثرية القديمة القليلة من بينها الروايات الخاصة بأيام المعارك التي خاضها العرب الجاهليون والأمثال القديمة واحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، أما الأدب النثري الجيد الذي ازدهر بغزارة بعيد عهد الأمويين والذي هو جزء مهم من الادب العربي النحوي فلم يستعن به لبناء قواعد اللغة . والسبب في اهماله وفي عدم محاولة تلاميذ سيبويه استخراج الأمثلة النحوية من النثر يرجع الى قدرة الاسلام على التشبث بالمعطيات الاولية . واذا طبقنا ذلك على اليونان فانه يعني حصر استخراج النماذج النحوية على مؤلفات هوميروس والشعراء الاقدمين واعمال هيرودوت (Herodot) وتوكيديدس (Thukydides) وبما أن لغة القرآن كانت هي اللغة القانونية والمحترمة الوحيدة وبما أن اللغة العامة كانت تختلف عنها في التشكيل وتركيب الجمل كان من الطبيعي أن يرفض العرب رفضا باتا استعمال ظواهر اللغة العامة في بناء النسق النحوي .

ولقد ادت الاعتبارات الدينية هنا الى تقلص المادة المتوارة وظهرت فعلا وفي زمن مبكر معارضة لهذه الفكرة وذلك في القرن الثاني الهجري وكانت المعارضة تتوخى توسيع المأثور اي الزيادة في المادة المستعملة لبناء النسق النحوي . لكن سرعان ما انتصر

مذهب المتواتر المعهود على مذهب التوسيع والتجديد وحتى فى النحو الذي ما كنا نتوقع فيه وجود علاقة بالدين ينعكس النزاع المتواصل الذي نلاحظه فى التطورات المذهبية والشرعية فى الاسلام . وفى هذا النزاع انتصر انصار القديم المتصلبين . ولهذا السبب رفض ممثلو النحو القومي العظام ، الانشغال باللغة العامة او تصحيح اخطائها . ولم يألوا جهدا فى الحفاظ ـ بغيرة ـ على القانون الذي هو نموذج الاعمال الادبية العظيمة وعدم توسيعه،ولهذا استعملوا دائما فى مؤلفاتهم نفس الادلة والامثال. وبذلك اتخذ النحو صبغة « علم معيار » واخيرا اصبح هذا المعيار والعبارة « ممنوع » سببا فى أن اللغة العربية الفصحى ظلت هي هي ، فى اساسها ، منذ ثلاثة عشر قرنا .

واذا عرفنا أن النحو العربي لم يتزود بأية مادة حية من اية لغة حية ، سهل علينا أن ندرك كيف غدا هذا العلم بالضرورة ، شيئا فشيئا ، جامدا مثل المومية . ويمكننا ان نأخذ فكرة عن ذلك فى رواية من روايات الشاعر الفارسي الشهير سعدي فى ديوانه « جنة الورد » فى القرن الثالث عشر . ففي احدى رحلاته الى تركستان الشرقية ـ التي هي ولا شك ، ثمرة خياله الشعري ـ راى سعدي فى مسجد كشكار طالبا منصبا بحماس على باب من ابواب كتاب الزمخشري . ويجب هنا أن استطرد لأقول ان النحو العربي يشرح حالات الاعراب فى جمل نموذجية صغيرة وتدرس نهايات الاعراب مرتبطة بنصوص مفترضة لا يحاد عنها قط ، ولذا سمع سعدي الطالب يقرا : ضرب زيد عمرو وعمرو هذا مفعول وزيد فاعل . وحدث أنه فى السنة نفسها عقد حاكم توران سلما مع القيصر الصيني بعد حرب طويلة . وقال سعدي للطالب الشاب فى سخرية خفية :

لقد تصالح توران والصين ، وما زال زيد يضرب عمرو . والى يومنا هذا يتضارب عمرو وزيد فى جميع المدارس التي يلقن فيها النحو العربي على الطريقة القديمة .

هذا ولم يعتبر المسلمون قط اللغة شيئا متطورا وناميا كما لم يتفهموا الفرق بين اللغة والكتابة التي هي شيء عارض مخترع والسبب فى ذلك هو القرآن أيضا فمعنى كل كلمة فى نصه المأثور لا يوجد فى صورته الملفوظة فقط ولكن يوجد أيضا ـ بل اكثر منه ـ فى رسمه المكتوب الذي تناقله الاجيال فى شكل معين . فللرسم والكلام نفس الوزن . وقد بنيت القواعد النحوية على اساس نص القرآن اي حسب صورة الرسم كما ترى بالعين لا حسب صورة اللفظ كما تسمع بالأذن . فأصغر جزء فى الكتابة هو الحرف اما فى العربية فهو الحرف المتحرك فقط (1) ولذلك يسوي فى الاصطلاح النحوي اللفظ والحرف المتحرك والمدلول الذي تدل عليه الكلمة (Silbe) ، والذي هو اصغر جزء فى الكلام الملفوظ المسموع ، لم يكن معروفا عند النحويين المسلمين فى القرون الوسطى ولم تعرف اللغة اصطلاحا عليه ، وبما أنه لم يعمل الا حسب صورة الرسم فكان المدلول الذي تدل عليه الكلمة (Vocal) ينقص فى اللغة . ولم تدخل علامة الحركة فى اللغة الا عند ما ادخلت العلامات الدالة على قصر الحركة . ولم يحدث ذلك الا لأن العرب يرمزون الى الحركة بعلامة خاصة . والشيء الذي يثير الاستغراب هو أن نظرية صوتية تشبه نظريتنا قد بنيت على هذا الاساس . بل تطورت منها الأوزان الشعرية وذلك بدون أن يكون المفهوم من الكلمة (Silbe) معروفا .

وبالاضافة الى معنى ضيق للمادة لا نفهمه نحن الغربيين ، فالمجرى الخارجي الذي اتخذته النظرة الى اللغة القومية فى العالمين الغربي والاسلامي متباين تمام التباين . فاليونان ، وهم أساتذتنا فى العلوم النحوية ، كانوا ، قبل اكتشاف العلوم المختلفة ، قد عنوا كثيرا بالعام الذي يكمن وراء الخاص واهتموا بمبادىء الفلسفة ، وبنوا بالفعل صروح المنطق ، وفى اطار هذا الاخير وجدت المادة التي تستند اليها العلوم المختلفة وخصيصا اللسنيات ارضا صلبة . فالكلام

---

(1) تنقسم الحروف الأبجدية عند الغربيين الى (Konsonant) بالفرنسية (Consonne) وهي ذات المخارج و (Vocal) بالفرنسية (Voyelle) وهي ما يسميه العرب الحركات كالفتحة والكسرة والضمة والسكون ـ الفرق بين العرب والغربيين هو أن الحركات عند الغربيين (a, e, i, o, u, y) تعد من الحروف وتكتب الى جانبها ـ ولا تعد فى العربية من الحروف ولا تكتب بالضرورة معها وانما توضع فوقها أو تحتها اذا اشكل النطق ـ (المترجم)

(2) يعبر عن هذه الكلمة اليوم بـ مقطع (المترجم)

والفكر عند اليونان يشتملان على نفس القوانين المنطقية . ولذلك كان من الممكن ادراك الاثنين فى نفس المنهج الفكري . فيتساوى عندهم الحكم والجملة ؛ والمدلول والكلمة . اما فى الاسلام فقد تطورت الامور تطورا مضادا على طول الخط ؛ حيث جمع المسلمون ؛ اولا ، المادة اللغوية التي هي موضوع البحث والتنظيم ، ثم كونوا منها بعد ذلك نظرية لغوية ولا نقول ان هذه النظرية الاساسية غير منطقية ولكنها ليست ، كما عند اليونان ، منطقية صرف ، فالنحويون القوميون العرب ينظرون مع وعبر الشكليات والقالب الى محتويات ومعاني الجمل . واليونان ومعهم الغربيون اليوم يرون العام وراء الخاص . اما النحو الاسلامي فلم يستطع ان يخرج من الخاص الى العام الا بشق الانفس . وتصلح نظرية اليونان اللغوية ان تطبق على جميع اللغات لأنها تطورت تطورا موضوعيا . اما النظرة العربية الاسلامية الى اللغة فلا يمكن تطبيقها اساسا الا على اللغة العربية نفسها لأنها لم تنبع من مبادىء منطقية موضوعية صرف . ولذلك يمكن ان يفهم السبب الذي جعل اللغتين الادبيتين الكبيرتين الفارسية الحديثة والتركية العثمانية المعتمدتين على العربية ، لا تستطيعان تطوير نظرية لغوية خاصة بهما . فالفارسية الحديثة الهندوجيرمانية ابت ان تخضع لنسق لا يصلح الا للغة العربية .

وتختلف التقسيمات فى النحو الاسلامي ، حتى فى مظهرها ، عن التقسيمات فى نحونا اختلافا كليا . فعلى اساس التوازن المنطقي بين الكلمة والمعنى وبين الجملة والحكم ، تنقسم قواعدنا النحوية الى دراسة تكوين الكلمات اي علم الاشكال ، ودراسة تكوين الجمل اي (Syntax) . اما النحويون العرب فينهجون نهجا آخر ، فهم يميزون بين المفردات من الناحية النحوية الصرف فقط ، حسب نهاياتها وحسب عملها الذي تعمله فى الجملة . ثم يكفي تقسيم المفردات تقسيما خارجيا لا يستند الى بنيتها ، وخلال هذا التقسيم الى مفردات مختلفة الانواع يمكن استخراج نظرية حول تكوين الجمل ، لأن الكلمات تتغير فى نهاياتها حسب موقعها من الجملة .

وتقسيم الكلمات هذا الى انواع ، هو الذي أدى بي الى نقطة الانطلاق فى هذا البحث . فيقسم العرب جميع مواد كلامهم الى ثلاثة اقسام : الاسم ، (1) والفعل (1)،والحرف (1) الذي نعبر عنه نحن بالجزيء. وهذا هو التقسيم الذي اخذه رويشلين من القواعد القومية اليهودية المقتبسة هي بدورها من القواعد العربية القومية . وقد ظن الناس فى الاول ان العرب مدينون ، فى معاني قواعدهم الاساسية هذه لتأثير اجنبي وبالاخص تأثير يوناني . مع العلم اننا ، نحن الغربيين ، لم نعرف الا بعض المؤلفات النحوية التي تحمل آثار التعريفات الارسطوطالية . وقد ظهرت هذه المؤلفات فى وقت متأخر نسبيا وجاءت مرتبطة بأصلها ارتباطا جديرا بالملاحظة ولم تنفصل عنها الا نادرا . بذلك كان من الممكن ان ينشأ اخيرا الاعتقاد القائل ان القواعد القومية العربية ارتكزت على الفلسفة اليونانية ، العكس تماما لما تواتر عند العرب الذين يعتبرون القواعد القومية علما عربيا محضا . وبهذا الاعتقاد فقد الغربيون ملكة تقدير المصادر القديمة بموضوعية ونسوا ان هذه المراجع الاصلية اقدم من التاريخ الذي دخلت فيه الحكمة اليونانية العالمية فى دائرة الفكر العربي . وقد اتى بعضهم بدلائل ضعيفة جدا ليحاول ان يجد فى انشاء المعاني عند النحو العربي تأثيرا من القواعد اللاتينية وذلك عند ما قارنوا بين الاصطلاح اللاتيني (Terminus) والعربي « حرف» مع ان « حرف » يدل على شيء من الملفوظ او المكتوب صغير ليس محدودا فى حجمه ، ابتداء من حرف او حرف متحرك حتى الكلمة وعبارة ، وجزء من جملة . ولا ينبغي فهم هذه الكلمة التي نعبر نحن عنها بكلمة (Partikel) اي قسم الكلام الثالث ، كما يفهم اليوم . فالمفهوم العربي لهذه الكلمة ليس كذلك. يقول سيبويه ان الكلام ينقسم الى ثلاثة اقسام : الاسم والفعل والحرف (1) ثم يعرف الحرف ويوضحه كما يلي : يعبر الحرف عن معنى ليس بالاسم ولا بالفعل . ولذلك فكلمة « حرف » تعني شيئا آخر،غير الحرف المفرد او مجموعة من الحروف التي تكون كلمة لا معنى لها بذاتها . كل ما ليس اسما او فعلا ينتمي الى الحرف ويأتي بمعنى . ولا تمت هذه الكلمة الى الكلمة اليونانية (Syndesmos) بصلة . وفى العبارة « حرف معنى (1) » كما كان يسمى القسم الثالث فى الاصل يقع الوزن فى الكلمة الثانية «معنى» ويمكن التعبير عنه فى لغتنا بـ « مجموعة من الحروف الأبجدية الدالة على معنى » .

---

(1) بالعربية فى الأصل وترجمها المؤلف الى الالمانية

يستعمل النحويون اليهود مرارا وبكل بساطة ترجمة عبرية لهذه الكلمة « معنى » للتعبير عن القسم الثالث للكلام . ولا يمكن التحدث عن استعارة من اليونان . والمطابقة بين الاصطلاح العربي « اسم » والاصطلاح اليوناني (Onoma) (تسمية شخص أو شيء) على قسم الكلام الاول ليس الا صدفة محضة . ولا علاقة أيضا بين الاصطلاح اليوناني (Rhéma) (هذا الذي يحكى على شخص) والاصطلاح الدال على قسم الكلام الثاني « فعل » في العربية .

فالفاعل عند النحويين العرب ليس هو الفاعل عندنا . كان هذا الاصطلاح في الاصل اصطلاح علم المنطق ونقله اليونان الى النحو ويعبر عندهم عن الكلمة التي يقال عنها شيء . لا يعرف النحو العربي هذا المفهوم الاصلي لكلمة « الفاعل » . فليست الجملة عند النحويين العرب حكما بل سلسلة من الكلمات الدالة على معنى . ولذلك ، فثمة أنواع مختلفة من الافعال حسب هذا الشيء الذي يقال عنه . فاذا بديء بالفعل سمي الفاعل ، الذي في محل رفع ، « فاعلا » . ولكن اذا بديء بالاسم سمي الفاعل « الكلمة التي بدىء بها » واذا بنيت الجملة للمجهول اصبح الفاعل غير فاعل ولكن مفعولا وسمي المفعول الذي لم يسم فاعله » .

وقد ظهرت هذه المعاني النحوية الاساسية عند اقدم النسقيين العرب . كانت المادة المخصصة للعمل محدودة للغاية ولذلك كان ينبغي أن يهتموا وخلفاؤهم معهم بالركن العلمي الثاني ، أي العقل ، المدبر والمرتب ، اكثر من اهتمامهم بالركن الاول ، فبهذه الطريقة قد يكون ما يضيفه العالم الى المادة أكثر من المادة نفسها التي يستخدمها .

وبالاضافة الى ما سبق ، فان العرب لم يهتدوا الى مقارنة العربية بلغات سامية اخرى لانهم كانوا يكادون يجهلونها . اما تطبيق المنطق على اللغة فلم يكن ممكنا لانعدام النسق عندهم . ولهذا السبب تمت جميع أعمالهم على أساس مبدأ واحد : القرآن كلام الله وهو العقل والمنطق . ولغة القرآن اذن مثال اللغة العربية ونموذج تعبيراتها ، ولا بد أن يظهر في كل جزء من بنائه المنطق الالهي . واذا كان اليونان قد سووا بين اللغة والفكر وبين قوانين اللغة وقوانين الفكر ، فالنحويون العرب قد سووا بين اللغة العربية والمنطق الالهي وواجب النحويين هو ازالة الحجاب عن المنطق الذي يكمن وراء الكلمات واكتشاف أسرار اللغة (أسرار العربية) (1)

ويسعى العالم النحوي الغربي ، من وراء الظواهر اللغوية الى استخراج قواعد تمكن من تفسير تطور لغوي . اما بالنسبة للعالم اللغوي العربي فاللغة مبنية نفسها بناء منطقيا وينبغي له أن يستدل على منطق هذه القواعد ويبرهن على أن كل كلمة اينما تقع في هذا المكان على أساس من المنطق السليم ، وانطلاقا من ظواهر استثنائية معينة يقيم النحويون العرب المتأخرون ــ باستدلال صارم ــ قاعدة لغوية مطلقة وقد لعبت هذه القاعدة دورا صغيرا في مرحلة النحو العربي المتقدمة لانها غير عقلانية ولم تلائم حياة اللغة ، بيد أن هذا الدور نما فيما بعد نموا غير طبيعي واصبح النحو علما محتاجا الى استدلال ومعيار بدلا من أن يكون علما مفسرا وشارحا .

وهذا مثال لمنهجهم : تقتضي كلمة الاستفهام العربية « كم » المنصوب بعدها . لماذا ؟ يفكر العالم النحوي العربي كما يلي : تحل « كم » محل عدد . ولا يعرف السائل هل « كم » حالة محل عدد صغير أو كبير . واعراب ما بعد العدد يختلف اختلاف وقوع العدد في احدى المجموعات الثلاث : (3 ــ 10) أو (11 ــ 99) أو (100 فما فوق) وبما أن الجواب غير معروف بالتأكيد فان الاختيار المنطقي الوحيد هو مجموعة الوسط (11 ــ 99) . وهذه الملجموعةتقتضي المنصوب وكذلك ــ اذن ــ « كم » .

هذا مثال نموذجي لحوار النحويين العرب . فالقواعد العربية شاملة صارمة ولا تقبل الاستثناءات . واذا حدث انحراف عنها يستعان بالتشبيه للدلالة على ان هذا الانحراف منتظم في القاعدة . ويؤتي لأجل ذلك بوجه أو أوجه للشبه . واذا كان عاملان متشابهين يختار للثاني نفس العمل الذي للاول . ولا يهم ان يكون هذان العاملان قابلين أو غير قابلين للمقارنة . وبما ان كل المفردات تتكون من الحروف المتحركة وبما ان هذه الاخيرة أجزاء اقسام الكلام المختلفة يمكن ايجاد علاقة بين الاسم والفعل الماضي ، مثلا ، وكلما زادت اوجه الشبه الخارجية والداخلية أمكن التسوية بين اعمال العوامل المشبهة ، وبما أن هنالك خمسة أوجه للشبه بين الاسم والفعل الماضي فذلك يكفي مثلا

(1) بالعربية في الاصل .

لاثبات ان هذا الاخير له الحق ، بالضبط كالاسم ، ان يغير ، قبل سواه حركاته .

يؤتي بالبراهين من كل ميدان ومجال . فمعروف في الطبيعة مثلا أن السبب يسبق المسبب . ولذلك فلا تسمح اللغة ان تأتي الجملة الشرطية في المقام الثاني بعد جوابها في مركب شرطي . فهذه الجملة تدل على علة ولذلك يجب أن تسبق اما الايقاع الجميل والعرف الرفيع فيفسران لنا كيف يجب أن يتبع المجرور عامل الجر فيه ، على العبد أن ينتظر حتى يأخذ السيد مكانه . وكذلك يجب على الكلمة المعمول فيها ان تقع وراء الكلمة العاملة . فيأتي مثلا المضاف قبل المضاف اليه ويقع حرف الجر قبل المجرور به.

فاللغة العربية صورة العقل والمنطق ونتيجة الفكر ، والعدالة والانسجام الالاهيين . والاستثناءات من القاعدة توجد في هذا النحو بالندرة التي توجد بها الاستثناءات من العقل في الحياة . بل لقد برر بعض النحويين المتأخرين الاستثناءات من القاعدة بواسطة المنطق . وفي الحالات التي لم يكف فيها المنطق الفيت الاستثناءات بكل بساطة من المادة الاصلية ويقف عقل النحاة فوق المادة ويسهر على عقلانية اللغة ويتساوى في العمل المعياري مع القاضي الذي انيطت به اقامة العدالة الالاهية والمحافظة عليها .

تفصلنا عوالم عن هذا المنهج وهذه النظرة العلميين **بل من الصعب علينا بمكان أن نساير هذا النوع** من طرق التفكير ولا يمكن تفسير هذا المنهج ـ كما قلت آنفا بايجاز ـ خصيصا بالنسبة الى النحو القومي العربي ؛ بالتأثيرات الاجنبية . فالعلم اليوناني والعلم العربي مؤسسان على مبادىء متباينة تماما . ولكن ليس من الانصاف الاستهزاء بهذا العمل العلمي . فانه يصدر عن سبب سام الا وهو واجب الانسان الاساسي في القرون الوسطى الاسلامية اعني العبادة (1) أي خدمة دين الله . ومن ثمة يأتي واجب الفرد أن يحيا حياة مستقيمة ، ومهمة العلم هي تنسيق وتأويل ما أتى به الوحي والحديث لاقامة هذه الحياة المستقيمة . ومهمة النحو كعلم من علوم اللغة ، في نشر القرآن والحفاظ عليه مهمة ممتازة للغاية ، ومن ثمة يمكن تفسير جموده فيما بعد ولكن من ثمة أيضا جاء الدافع القوي الى العمل .

والمرآة التي بحثنا فيها عن صورة اللغة العربية اكثر من مرآة بمعناها المألوف ، فهي بؤرة اشعاع **ومصدر الضوء فيها هو الدين الذي ذابت اللغة العربية في أشعته لخدمة الاله .**

(1) بالعربية في الاصل .

الورق المهرق stencil

ذكر ابن الأبار (الحلة السيراء ص 137) « انه كان لعبد الرحمن كاتب أعتاد أن ينشيء الرسائل الرسمية في منزله ثم ينفذها الى ديوان خاص يصير فيه اظهارها على الورق وهو من نوع الطباعة فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة » .